فيم أكتب !

للأستاذ محمود محمد شاكر

إلى أخي الأستاذ الزيات

السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وبعد ، فقد دعوتني فاستجبت لك ، رضي بك وعنك . بيد أني أجبتك ساخطا على نفسي ، والجمرة الموقدة أبرد مسا من سخطة امرىء على نفسه . كنت عزمت أن أدع هذا القلم قارا حيث هو ، في سنة لا تنقطع ، يعلوه صدأ لا ينجلي . وظللت أياماً أسأل نفسي : فيم أكتب ؟ فيم العناء والنصب ؟ علام أزهق أيامي في باطل لا ينقشع ؟

* * *

بقي ما كتبته لك آنفاً معلقاً يوماً كاملا ، حتى خانني مخلفاً لك موعدي . والساعة ذكرت أمراً : ذكرت أني ختمت مقالاتي المتتابعة في الرسالة ، منذ خمس سنوات تقريبا ، بسؤال آخر : « لمن أكتب ؟ » [1] . وقلت يومئذ إني لم أحاول قط أن أعرف لمن أكتب ؟ ولم أكتب ؟ ولكني أحس من سر قلبي أني إنما أكتب ، ولا أزال أكتب ، لإنسان من الناس لا أدري من هو ، ولا أين هو . أهو حي فيسمعني ، أم جنين لم يولد بعد سوف يقدر له أن يقرأني ؟ ووصفت يومئذ شراذم الساسة الذين لوثوا تاريخ الحياة الإسلامية والعربية ، في حيث كان الإسلام وكانت العرب . ووصفت رجال العلم المتعبدين لسادتهم من أهل الحضارة الفاسدة التي تعيش بالمكر والحقد والفجور . ووصفت أصحاب السلطان في الشرق ، وهم حثالة التاريخ الإنساني ، ووصفت أهل الدين ، إلا من رحم ربك ، الذين يأكلون بدينهم ناراً حامية . وزعمت أني لن أيأس من رجل أو رجال توقظهم هذه البلوى المطبقة المحيطة بنا ، فيدفعهم حب الحياة وحب الخير ، إلى نفض غبار القرون عن أنفسهم .

ثم ذكرت هذا الرجل الذي طواه الغيب إلى ميقاته ، فأنا أكتب له حتى يخرج من غمار هذا الخلق ، وينفرد من هذه (السائمة) ، ليقود الشعوب بحقها لأنه منها : يشعر بما كانت تشعر به ، ويألم لما كانت تألم له ، وينبض لبـه بالأماني التي تنبض به ضمائر قلوبها . رجل خلطت طينته التي منها خلق ، بالجرية . فأبت كل ذرة في بدنه أن تكون عبداً لأحد من خلق الله . يسير بين الناس

(1) عدد الرسالة : ٧٦٦ في ٢٦ ربيع الآخر سنة ١٣٦٧ ٨ مارس سنة ١٩٤٨

ولا أرضاً مما يحرث الحارثون ، وإنما هي بناء مآثر وإعلاء أمجاد ؛ وإنما هي خلال تتفتح عن أعمال ؛ وإنما هي عزائم لا تعرف الهزائم ؛ وإنما هي طموح وجموح : طموح لمواطن العز وجموح عن قيود الذل ، وإنما هي رأي أصيل ، وفكر جزيل ، ولسان بالبيان بليل ، وعقل هو على الحكمة دليل ، وقلب هو للجرأة خليل . فجميع هؤلاء هو العروبة ، وجامع هؤلاء هو العربي . وما عدا ذلك فهو تعلل بخيال . وتعلق بضلال . وتخلق بكذبه الخلق . وخيانة للعروبة في اسمها . وعقوق لآباء كأنما عناهم المعري بقوله :

جمال ذي الأرض كانوا في الحياة وهم
بعد الممات جمال الكتب والسير

أيها المسلمون : إن اليهود طامحون إلى أكثر من فلسطين . وإنهم يستعدون بعد أن غمسوا أرجلهم في ماء البحر الأحمر لاحتلال مكة والمدينة فماذا أنتم صانعون ؟ إن كنتم تعتمدون على أن للبيت رباً يحميه ، فهذا إرهاص لا يتكرر مرتين . وهو عذر لا يقوم بعد أن أخذ عليكم العهد بحماية البيت . إنه لا حجة لنا على الله بل لله الحجة علينا ؛ وإننا لسنا من العزة على الله بحيث يخرق سننه الكونية لأجلنا . وقد رفع يده عنا فلا يبالي في أي واد نهلك . وحكم سننه فينا فحكمت بأن نملك ولا نملك . فعودوا يعد ، وغيروا يغير ، وحققوا الشرط يحقق الجزاء

محمد البشير الإبراهيمي

فتسرى نفسه فى نفوسهم ، وتموج الحياة يومئذ بأمواجها ، ثم لا يقف دونها شىء مهما بلغ من قوته وجبروته . وزعمت أن الشرق العربى والإسلامى ، ينتظر صابراً كعادته هذا الرجل ، وأننا وأننا قد أشرفنا على أمره قد كتب الله علينا فيه : أن نجاهد فى سبيله ، ثم فى سبيل الحق والحرية والعدل ، لأننا نحن أبناء الحق والحرية والعدل ، قد أرضعنا الدهر بلبانها منذ الأزل البعيد

ثم ختمت كلامى بهذه الفقرة : فأنا إن كتبت ، فإنما أكتب لأتعجل قيام هذا الرجل من غمار الناس ، لينقذنا من قبور جثمت علينا صفائحها منذ أمد طويل . وليس بيننا وبين هذا البعث إلا القليل ، ثم نسمع صرخة الحياة الحرة العادلة ، يستهل بها كل مولود على هذه الأرض الكريمة ، التى ورثناها بحقها ، ليس لنا فى فترمنها شريك»

كتبت هذا يومئذ ، والناس فى ظلمة ليل بهيم . ومنذ ذلك اليوم والأحداث فى الشرق العربى والإسلامى آخذ بعضها برقاب بعض . وحركت الأحداث المتتابعة نواعس الآمال ، فهبت تمسح من عيونها النوم المتقادم . ثم حلقت فى أكداس الظلام المركوم ، فأوهمتها اليقظة أن الظلام من حولها يومض من بعيد ببصيص من نور . فتنادت الصيحات بانقشاع الظلم : وافرحتاه ! وصرخت وأنا فى محبسى : واحسرتاه ! أعمى رأى الظلام نهاراً !

كانت الدنيا يومئذ ظلاماً ، ونعرفها نحن ظلاما . والمعرفة دائما تفضى إلى خير . ثم أصبحت الدنيا أشد ظلاما . ونتوهمها نحن نورا ينبثق . والتوهم مفض أبدا إلى أفحش الشر . المعرفة بناؤها على الصدق ، والتوهم عماده الكذب . ولا فلاح لشئ إلا بالصدق وحده

لقد طرأت على هذا العالم العربى والإسلامى طوارئ ، فإذا لم يصدق نفسه فلا نجاة له . واحتوشته الأمم المفترسة بأساليبها الظاهرة والخفية . فإذا لم يصدق النظر فلا خلاص له . لست قانطا ولا مقنطا . كما يتوهم من يحب أن يتوهم . ولكنى أرى بلاء نازلا بنا . ونحن نخوض كأنه رحمة مهداة . وبئس ما نفعل ؟ وبئس مطية الأعمال الكذب

من حيث ألتفت أرى وجوها تكذب ، ووجوه مكذوبا عليها . وأسمع أصواتا تخدع ، وآذانا مخدوعة بـ تسمع . وأقرأ كلاما غمس فى النفاق وفى التغرير غمسا وألمح فى عيون الساكين ممن قرأوه غفلة تتلألأ بفرح ولكنها فرحة لا تتم عليها إلا بالعمى المطبق عن الحق والصواب . إن هذا كله إعداد للمجزرة الكبرى . حيث تذبح الآلاف المؤلفة منا بمدى حداد استخرج حديدها من معدن القلوب المضطغنة بالعصبية ، المنهومة بالنفعة وأمهاها ماء الحقد الصليبى الوثنى ؛ وأرهفت بلذة الفتك الذى لا تطفأ ناره

إن الذى نعيش فيه اليوم حياة قد مهد لها جبابر الدهاة ؛ لا أقول منذ عام أو عامين ، بل منذ أكثر من مئتى عام . حطم كل شئ قليلا قليلا حتى خر البناء كله ثم انبعثت من تحت الأنقاض حيات خبيثة تلبس إهاب البشر . غذيت بالسم الذعاف حتى صارت لحماً وعظماً : لا ودماً ؛ ولا يعنيك أو يعنينى أن ننظر : أهى تعرف نفسها وتدرك أنها مسخت أفاعى فى مسلاخ إنسان ، أم تراها لا تعرف ولا تدرك ؟ ليس يعنينى هذا ولا يعنيك ؛ بل يعنينا — ويعنيها هى أيضاً — أن نصدق المعرفة أنها حيات تنفث سمها فى حياة الناس ؛ فى حياة الغافلين النائمين . فمن استعصى عليها فتكت به ؛ ومن أطاع لسمها مسخ كشكلها حية تسعى . فإذا قدر لهذه الحيات أن تبلغ الغاية التى مسخت لها ؛ فلن يتم ذلك حتى تكون الأرض العربية والإسلامية كلها خراباً من البشر الأحرار ؛ خرا تعمره الهام من أفاع وحيات وأصلال

من مخافة هذا اليوم كنت أكتب قديماً ما استطاع هذا القلم أن يكتب ، ثم وجدتنى فجأة فى موج متلاطم من

الضلالات ، تتقاذفه ضلالات العلم المكذوب ، وضلالات الرأى المدلس ، وضلالات السياسة الخداعة . وإذا الأرض من حولى تعج بترتيل مظلم مخبول ؛ وإذا السماء من فوق تهتف بتسبيح كالح مزور ؛ وإذا صوتى يضيع فى سمعى ؛ فهو إذن فى أسماع الناس أضيع ؛ وتردد فى صدرى شعر الحكمى ؛ فاستمعت له وسكت :

مت بداء الصمت خير لك عن داء الكلام
إنما السالم من ألجم فاه بلجام

فلما دعوتنى فأجبت ، انقلبت أسائل نفسى : فيم أكتب ؟ فيم العناء والنصب ؟ علام أزهق أيامى فى باطل لا ينقشع ؟ إن بينى وبين الأسماع والأبصار والقلوب ، حجابا صاخباً من غمائم الدجاجلة ، وهمام الأفاكين ، وثغاء أهل النش ، وضغاء أخدان النفاق ... ويذهب قولى باطلا ويضيع صوتى مختفقا ، ولم أجن عندئذ عن حياتى إلا شقاء يقول فيه القائل : « إن الشقى بكل حبل يخنق » ، حتى حبل الحق والصدق ! حتى حبل الحق والصدق ! .. وإنك لتعلم : أن لو أنى عرفت للكتابة ثمرة ، لما توقفت ساعة ، ولما أبطأت دون ما وجب على

بأى لسان أستطيع أن أفتق للناس أسماعا غير الأسماع التى طمها الكذب المسموع ؟ وبأى قلم أستطيع أن أسلخ عن العيون غشاوة صفيقة لبسها بها الكذب المكتوب ؟ وبأى صوت أستطيع أن أنفذ إلى قلوب ضرب عليها نطاق من الكذب المسموع والمكتوب ؟ بأى لسان ، وبأى قلم ، وبأى صوت ؟ ولكنه ، على ذلك كله واجب ، وإن كان جهدا لا ثمرة له ! وهو كذلك ، وإذن فليس لى أن أسأل نفسى : فيم أكتب ؟ ولم هذا العناء والنصب ؟ وعلام أزهق أيامى فى باطل لا ينقشع ؟

وإذن فقد كتب على أن أنصب وجهى لهذا الشقاء الصبيخود ، لا أبالى أن أحترق ، ولا أحفل أن أعود سالما ، ولا آبه لما يصيبنى ، مادام حقا على أداؤه

إنها أيام بلاء ومحنة : من عدونا حيث بلغ منا كل مبلغ ، ومن أنفسنا ، حيث صار كل امرئ منا عدو نفسه وعقله ، عدو تاريخه وماضيه ، عدو مستقبله من حيث يدرى ولا يدرى . إنها أيام ضلال وفتنة ، تدع الحليم الركين حيران ، بلا حلم ولا ركانة ، تدع البصير المهتدى ، أعمى بلا بصر ولا هداية . تدع الصادق الحازم ، غفلا بلا صدق ولا حزامة . ولكنها على ذلك كله ، كتبت على الحليم الركين ، وعلى البصير المهتدى ، وعلى الصادق الحازم — أن يعيش فى شقائها بلا ملل ، وأن يكون فيها كما قال شاعر الخوارج ، عمران بن حطان ، فى أهل الدنيا :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجوع

فمنذ حملت إليك هذا القلم ، استجابة لدعوة لم أجد ردها من الأدب ولا من الوفاء فى شئ ، عرفت أنى سوف أكتب كما كتبت قديما ، لأتعجل انبعاث رجل من غمار أربعمئة مليون من العرب والمسلمين ، تسمع يومئذ لحكمته الأجنة فى بطون أمهاتها ، وتهتدى بهديه ، الذرارى فى أصلاب الآباء والأمهات

ولكنك بعد ، قد أزلتنى بحيث يقول القائل :

حيث طابت شرائع الوت ، واللو
ت مرارا يكون عذب الحياض

فأنا إن شاء الله بحيث أحببت لى أن أزل ، والسلام

محمود محمد شاكر

مختارات من الأدب الفرنسى
شعر ونثر
للأستاذ أحمد حسن الزيات